السياق غير اللغوي في النص القرآني

خليل خلف بشير العامري
تدريسي في :جامعة البصرة/كلية الآداب

المقدمة

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

صدق الله العلي العظيم (هود /88)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الأطهار، وصحبه المنتخبين الأبرار،وبعد:

هذا بحث يتناول السياق في نص إلهي معجز في قمة البلاغة والفصاحة، وهو محاولة في فهم الظروف التي راعاها القرآن الكريم عندما خاطب قوماً عكفوا على عبادة الأصنام والأوثان إذ أنزل القرآن بلغتهم ولسانهم ليفهموه وليتدبروا آياته. قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ــ إبراهيم / 4 ﴾ فأمرهم بنبذ الأصنام التي لا تضر ولا تنفع وعبادة الله الخالق البارئ المصور ، ومنَّ عليهم بالصادق الأمين.قال تعالى :﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ــ آل عمران /164﴾ فراح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يصدح برسالته طوال بعثته وتحمل من الأذى والألم الشيء الكثير وقد سجّل القرآن حياة المسلمين وما عاناه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معهم من المشركين والكافرين والمنافقين فكان لكل واحد من هؤلاء سياقه الخاص حتى اقترن سياق مقالهم بسياق حالهم.

أما منهج البحث فقد قام على اختيار الشواهد القرآنية وفقاً لسياقات النص القرآني غير اللغوية مفيداً من علم أسباب النزول بعد أن مهّد الباحث لذلك بتعريف السياق في المعاجم اللغوية والمعاجم الاصطلاحية ، وأنواع السياق.

على أن هذه الدراسة بذرة من بذور الدراسات القرآنية عسى أن تكون جيدة وصالحة للزراعة بعد أن سقاها الباحث بماء العيون ومداد اليراع لـ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ــ إبراهيم / 25 ﴾، والله ولي التوفيق .

السياق في اللغة

جاء في مادة (سوق) قول ابن منظور : ((سوق السوق معروف، ساق الإبل وغيرها ، يسوقها سوقاً وسواقاً وسياقاً ، وهو سائق وسواق وشدد للمبالغة...والسياق نزع الروح)) [1] وورد في المعجم الوسيط في المادة نفسها أن السياق يعني ((المهر ، وسياق الكلام : تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه)) [2].

السياق في الاصطلاح ، وأنواع السياق :

يعرف الدارسون المحدثون السياق بأنه ((ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى،وقد يكون التوضيح بما ترد فيه اللفظة من الاستعمال،وقد يكون ما يصاحب اللفظ من غير الكلام مفسراً للكلام ،وقد تكون العلاقة بين هذا الكلام وبين شيء آخر كلاماً كان أو غير كلام...))[3] ،ويعرفه بعضهم بأنه بناء كامل من فقرات مترابطة في علاقته بأي جزء من أجزائه التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة[4] ، ولهذا

شبه بعضهم علاقات السياق بنسيج العنكبوت الواسع المتعدد الأبعاد يمثل كل خيط فيه إحدى هذه العلاقات ، وتمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة،ويستحيل إعطاء معنى كلمة دون وضعها في نص(5).

اما أنواع السياق فقد ذكر المحدثون أنواعا كثيرةً للسياق لكنها جميعها تنضوي تحت نوعين رئيسين هما(6) :

1- السياق اللغوي :ويسمى السياق الداخلي، ويشمل السياق الصوتي والصرفي والنحوي.

2- السياق غير اللغوي:ويسمى السياق الخارجي، ويشمل السياق الاجتماعي ، والسياق التاريخي ، وسياق الحال أو سياق المقام.

وقد فصلنا القول في السياقات اللغوية في بحثنا الموسوم (السياق اللغوي في النص القرآني) المنشور في مجلة دراسات نجفية في عددها الرابع سنة 2005 ، وفي بحثنا هذا سنفصل القول في السياقات غير اللغوية متخذين النص القرآني شاهداً ومرتكزاً.

والنص القرآني غني بمدلولاته ،ومرن مرونة متفاعلة مع الواقع تفاعل تخلية أو تحلية ،ولا يقيد مرونته أو يجدب غناه إلا البعد عن السياق(7) ،ولما كان القرآن حمال أوجه فلا نستغرب تعدد سياقاته اللغوية وغير اللغوية، ولذا يشمل السياق غير اللغوي سياقات متعددة منها : السياق الاجتماعي ، والسياق التاريخي ، وسياق الحال ، وسياق الموقف .... الخ ،

فلنتعرف على بعض هذه السياقات التي تبدو متشابهة

(1)السياق الاجتماعي :ويشمل عدداً كبيراً من العوامل من بينها المجموعات الاجتماعية التي ينتمي إليها المتحدث ، والعلاقات الاجتماعية بين المتحدث والمتلقي والتعامل الاجتماعي ونوعية هذا التعامل والمعرفة المشتركة بين المشتركين في الكلام(8)، ولعل أفضل طريقة لتعلم اللغة هي أن يعيش طالب التعلم حيناً في المجتمع الذي يتحدث اللغة ذلك لأنَّ اللغة مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالمجتمع حتى أنَّ اللغويين المحدثين أصبحوا متفقين على أنَّ اللغة نشاط اجتماعي يقوم به الإنسان فهي ليست مجرد معبر عن الفكر كما تعرف قديماً ، لذا فإنَّ السياق الاجتماعي متمم للمعنى لا يمكن الاستغناء عنه في تفسير اللغة (9).

ولا يخفى على ذي لب أنَّ القرآن الكريم قد راعى هذا السياق من خلال تشريعاته السمحاء فيما يتعلق بأمور الزواج والطلاق والميراث فضلاً عن نهيه عن عادات اجتماعية سيئة كانت سائدة في الجاهلية مثل وأد البنات قال تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ــ التكوير/8،9﴾ وكذا قتل الأولاد خشية الفقر قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَولادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ــ الأنعام / 151﴾ وقال : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَولادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ــ الإسراء / 31﴾ إذ قدم رزق الآباء على رزق الأبناء في الأنعام في حين قدم رزق الأبناء على رزق الآباء في الإسراء لأنهم في الأنعام يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم فهم محتاجون إلى الرزق العاجل.أما في الإسراء فالأمر مختلف لأنهم يقتلون أولادهم خشية الفقر في المستقبل لا لأنهم مفتقرون في الحال إذ آية الأنعام خاصة بالفقراء أما آية الإسراء فخاصة بالموسرين (10).

(2)السياق التاريخي : أشار القرآن الكريم إلى حقائق تاريخية ذات صلة وثيقة بحياة العرب عندما يذكر أماكن وأخبار خارجة عن محيطهم فلم يخاطبهم إلا بما يفهمونه ويعهدونه لاسيما أنّ للعرب أسفار وتجارات واتصالات تربطهم بالعالم الخارجي فالقرآن نوّه بتجارتهم.قال تعالى : ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ

*إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ــ قريش /2،1﴾ وكانت مكة مركزاً للقوافل التجارية.

وفي هذا السياق لا يمكن فهم الآيات بمجرد الأدوات اللغوية بل لابد من الإحاطة بجوانبها التاريخية والوقوف على تفاصيلها الحقيقية [11] ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ــ الفيل /1﴾ وقوله : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ــ البروج /4﴾ وقوله : ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ــ الفجر/9﴾ وقوله : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ــ سبأ/15﴾ وقوله : ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ــ الروم / 2،3﴾ فضلاً عن ذلك فسورة التوبة لا تفهم بمعزل عن تفاصيل غزوة تبوك ، وسورة الأنفال تكاد تكون مختصة بغزوة بدر، وسورة الحشر فيها تسجيل تفصيلي لغزوة بني النضير، وسورة الفتح مرتبطة بصلح الحديبية وفتح مكة ، وسورة الأحزاب سميت بإحدى الغزوات المشهورة وهي غزوة الخندق ، أمّا سورة المزّمّل ، والمسد، والمدّثّر، والجن، والفيل ، والكوثر ،والعلق والقلم ،والتحريم ،والنور ، لا يتأتى لنا فهمها فهماً كاملاً ما لم نُحِط إحاطة تامة بتفاصيل سيرة المصطفى (صلى الله عليه واله وسلم) [12].

(3) سياق الحال : لما كان المعنى المعجمي ليس كل شيء في معرفة الكلام فلابد من عناصر غير لغوية لها دخل كبير في تحديد المعنى، وهي جزء من أجزاء معنى الكلام وهذه العناصر هي ظروف الكلام وملابساته ، وهو ما يسمى (بسياق الحال) الذي يمكن تعريفه بأنه كل الأحوال والظروف والملابسات التي تصاحب النص وتحيط به نطقاً أو كتابةً [13].

ويطلق على سياق الحال أكثر من مصطلح منها :مقتضى الحال – وهو مصطلح قديم – ،والماجريات أو سياق الموقف ، وسياق المقام. وتقف هذه المصطلحات في مقابل مصطلح سياق المقال [14]، ولعل أقدم عبارتين جمعتا فكرة السياق هما اللتان نادى بهما البلاغيون العرب بقولهم : "لكل مقال مقام" و"لكل كلمة مع صاحبتها مقام"،وقد عدتا من نتائج المغامرات الفكرية في دراسة اللغة في الفكر المعاصر[15].

إن فكرة المقام هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة ، وهو الأساس الذي تنبني عليه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال[16] ، وبالرغم من أن علم الدلالة المعاصر يتناول جوانب أخرى غير نظرية السياق أو فكرة المقام ، إلا أن نظرية السياق تشكل ركناً هاماً من أركان علم الدلالة ؛ لأن التحليل اللغوي للنص أو الكلام لا يعطينا إلا المعنى الحرفي للنص ، وهو معنى فارغ تماماً من محتواه الاجتماعي والتاريخي ، ومنعزل عن كل ما يحيط به النص من القرائن التي تحدد المعنى[17].

وقد حرص القرآن الكريم على اختيار الألفاظ بحسب سياق المقام ، وللتدليل على ذلك نذكر نصين قرآنيين متشابهين في اللفظ لكنهما مختلفان في المقام ، أحدهما من سورة النمل في قوله تعالى﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ / 10﴾ ، والآخر من سورة القصص في قوله تعالى ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ/31﴾، ففي القصص ذكر لفظة (أقبل) ولم يذكرها في النمل ؛لأن المقام في النمل مقام إيجاز لا مقام تفصيل كما في القصص ، وكذا شيوع جو الخوف في القصص يدل على إيغال موسى في الهرب فدعاه إلى الإقبال وعدم الهرب. أضف إلى ذلك أنه قال في النمل (إني لا يخاف لدي المرسلون) ؛ لأن المقام مقام تكريم وتشريف ويدلنا على زيادة التكريم والتشريف زيادة لفظة (لدي) في حين قال في القصص (إنك من الآمنين) ؛ لأن المقام مقام خوف، والخائف لا يحتاج إلى الأمن[18].

ويفرق بعض الدارسين المحدثين بين سياق الحال والسياق الاجتماعي في كون سياق الحال سياقاً مؤقتاً يتصف بالآنية عند النطق بالكلام أو عند كتابته ، أما السياق الاجتماعي فهو سياق سائد يتصف بالثبات أو الدوام[19]. ويبدو أن هذا الكلام لا ينطبق على النص القرآني ؛ لان سياقه يتناول جميع الإغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني[20].

ويعد بعضهم السياق الاجتماعي من سياق الحال متكئاً على كون اللغة ظاهرة اجتماعية لا يمكن فصلها عن المجتمع والسياق الاجتماعي[21].

أما رائد النظرية السياقية فهو العالم الانكليزي جون فيرث الذي أكد الوظيفة الاجتماعية للغة وصرح بان المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة[22] ،((على أن جذور تلك النظرية متأصلة عند علمائنا الأفذاذ أمثال سيبويه ، والجرجاني ، والسكاكي ، والجاحظ ،وابن قتيبة، وغيرهم))[23].

وقد حدد فيرث العناصر المتصلة بسياق الكلام بثلاثة عناصر هي[24]:

1- شخصية المتكلم والمتلقي ،وتكوينهما الثقافي،وشخصيات أخرى تشهد الحدث الكلامي ،وأحداث غير كلامية كالإشارات ،وتعبيرات الوجوه والانفعالات وغيرها.

2- العوامل والظواهر الاجتماعية التي تتصل بالموقف الكلامي كالمكان الذي تجري فيه العملية الكلامية أو الطقس، وحالة الجو، والوضع السياسي، وعلاقة ذلك كله بالسلوك اللغوي وقت الكلام.

3- اثر النص الكلامي في المشتركين كالاقتناع، أو الاعتراض، أو الضحك، أو السخرية، أو غير ذلك.

وهذه العناصر كلها موجودة في أسباب النزول ، وللتدليل على ذلك نأخذ قصة الإفك التي تحدث عنها القرآن الكريم بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ – النور/11﴾ إذ عند تأمل سبب نزول هذه الآية نجد صدى هذه العناصر الكلامية ،فالمتكلم هو القرآن – الله تعالى- والسامع هو الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وعائشة والمسلمون ،والشخصيات الأخرى المغرضون أمثال : عبد الله بن أبي سلول ، وأم مسطح – رفيقة عائشة- وغيرهم وزمان النزول غزوة بني المصطلق ، ومن العوامل المتعلقة بالسلوك اللغوي فقد عائشة عقدها ورجوعها للبحث عنه مع رفيقتها أم مسطح مما جعل بعض المنافقين يتهم عائشة بالزنا فنزلت الآية مبرأة إياها من هذه التهمة[25].

وبذا تتضح عناية القرآن الكريم والعرب بأسباب النزول للإحاطة بما يرافق النص القرآني من ظروف وأحداث كي يصل المفسر إلى فهم صحيح للآيات ، فهي – أسباب النزول – قرائن للكشف والتفسير تتضافر مع القرائن الأخرى لتوجيه النص القرآني وجهة أكثر دقة[26].

ولعل خير وسيلة نعتمد عليها في معرفة هذه الأحوال والظروف والملابسات ــ أسباب نزول الآيات وارتباط ذلك بسياق حال المخاطبين ولنأخذ أمثلة على ذلك :ــ

(1) ما جاء في سبب نزول سورة المطففين : ((عن ابن عباس (رض) : لما قدم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً فأنزل الله ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك)) [27] ، ويروى أنّ رجلاً يدعى أبا جهينة كان له صاعان يأخذ بأحديهما ويعطي بالآخر فجاءت الآيات في السورة المباركة وعيداً لكل من طفف الكيل والوزن [28]. قال تعالى :﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ *الَّذِينَ إذا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ *وَإِذا كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ *أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ــ الآيات / 1 ــ 4 ﴾

(2) ما جاء في سبب نزول سورة الممتحنة أنه لما تجهز رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لفتح مكة كتب حاطب بن بلتعة يخبرهم بذلك ، وقال لهم : إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم ثم أرسل الكتاب مع امرأة مسافرة فنزل الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبره بذلك فبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) والزبير والمقداد (رضي الله عنهما) واستخرجوا الكتاب من عقيصتها❁ بعد أن هدّدوها بالقتل [29] فنزل قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَولِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقّ – الممتحنة /1﴾

أقول لا يمكن فهم السورتين السابقتين وأمثالهما ما لم نطلع على سبب نزول كل سورة أو آية.

ولا تقتصر مستويات السياق الخارجي(غير اللغوي) على معطيات أسباب النزول بل تمتد في بنية الخطاب القرآني إلى مستويات أشد تركيباً ، فمثلاً سياق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سياق متعدد في ذاته بحسب التعبير القرآني بين التهدئة والتثبيت،واللوم والعتاب، والتقريع والتهديد أيضاً [30] ، وأمثلة ذلك قوله تعالى﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً – الفرقان/32﴾وقوله﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى– طه/ 1،2﴾وقوله﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً – المزمل/1،2 ﴾وقوله﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ – المدثر/1،2 ﴾،وقوله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ – الحاقة/ 44–45 ﴾وقوله﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ –الحجر/94﴾، وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ –المائدة/67﴾والملاحظ في هذه الآيات هيمنة سياق الأمر؛لأن مهمة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)تبليغ الأوامر الإلهية إلى الناس قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً – الأحزاب/45 ﴾،وقال أيضاً﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً –الفتح/8﴾ ،أما سياق أزواج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فبين المدح واللوم والتعنيف،وهو سياق مغاير لسياق سائر النساء كما في قوله تعالى ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً – الأحزاب/30 ﴾،وقوله ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً – الأحزاب/32﴾،وقوله﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً – الأحزاب/28 ﴾،ولتعظيم الله حبيبه المصطفى وتبجيله إياه وتخصيصه عن سواه من الأنبياء لم يناده بـ (يا محمد) بل بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [31] ،و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [32] في حين نادى الأنبياء بأسمائهم [33] بقوله : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ـ البقرة/35 ﴾ وقوله : ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ـ هود / 48﴾ وقوله﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ*قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ـ الصافات / 104ـ105﴾ وقوله : ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ـــالأعراف / 144﴾ وقوله : ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ـ آل عمران / 55 ﴾.

أما الخطاب الغليظ فنجده في سياق آيات الشرك والمشركين ، والكفر والكافرين ، والنفاق والمنافقين ،والجهاد والمجاهدين من ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ـ البقرة/ 190 ـ 191﴾ وقوله :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ*أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ *لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أولادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ــ المجادلة/ 14 ــ 17 ﴾.

وقد يستعمل التعبير القرآني الكنية للمشرك مع أنّ الكنية يراد بها الإكرام والاحترام ففي سياق اللعنة والعذاب يكني تعالى عن عبد العزى عم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بـ (أبي لهب) في قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ــ المسد/1﴾ إذ يطرح صاحب المنة[34] تساؤلاً مفاده أنّ الله تعالى ذكر أبا لهب بكنيته دون اسمه مع أن ذلك إكرام واحترام ، والسياق سياق لعنة وعذاب،ويجيب على ذلك بالقول : إنّ القرآن الكريم لم يذكر اسمه (عبد العزى) لأمرين :ــ

(1) لمانع ثبوتي وهو مخالفته للواقع من حيث كونه عبداً حقيقة.

(2) لمانع إثباتي أو إعلامي، وهو تعمد حذف أمثال هذه الأسماء من السياق القرآني لأنّ في ذكرها تخليداً لأصحابها.

فضلاً عن ذلك نجد أن لفظة أبي لهب مناسبة مع حاله الأخروي فمن اللطيف أن يُسب بكنيته باعتباره من المعاقبين مع ملاحظة تناسب النار ذات اللهب مع أبي لهب [35] ، وهذا التناسب أو التجانس الفني بين (النار ذات اللهب) و(أبي لهب) له قيمته الفنية الممتعة المثيرة[36].

ومثل هذا الاستعمال نجده في خطابه أبا جهل في قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ـــ الدخان / 49 ﴾ ،إذ استهزأ بالمخاطب[37] والذي يدلنا على ذلك السياق فقد سبقت هذه الآية بقوله : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَوَاءِ الْجَحِيمِ *ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ــ الدخان/ 47 ــ 48 ﴾.

وهذا موجود في الشعر من ذلك قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر[38] :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي

إذ أراد الحطيئة : المطعوم المكسو.

أمّا خطابه للكافرين فكان خطاب ذم وتحقير [39] من ذلك قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ــ التحريم / 7﴾ وقوله : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ــ الكافرون/1،2﴾ وبعكسه خطابه المؤمنين خطاب لين ورفق وتلطف من ذلك قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ــ الممتحنة/1﴾ وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ــ التحريم / 8 ﴾.

على أنّ من يتدبر أية سورة من سور القرآن بعمق يلمس حقيقة مهمة تبرز في جميع أجزاء السورة سواء قسمناها إلى وحدات موضوعية أو آيات، حتى أنّ الكلمات لتأخذ حظها من هذا الاهتمام في أصل اختيارها وفي ترتيبها من الجملة وفي حروفها مما يُسهم في تفسير كثير من المواضع التي تثير التساؤل من مثل التعبير بـ (إخوان لوط) في سورة (ق) بدلاً من (قوم لوط) كما هو الغالب على التعبير القرآني ، ومن مثل (واو الثمانية) كما أُصطُلِحَ على تسميتها في قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ــ الكهف / 22﴾ وقوله : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ــ الزمر/73﴾ وبدون الواو في جانب الكفار[40] في قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ــ الزمر/71﴾ ولعل هذا وأمثاله من أسرار كتاب العربية الأكبر الكامنة التي قال عنها الصحابي الجليل عبد الله بن عباس (رض) : " في القرآن معانٍ سوف يفسرها الزمن " يتضح مما أسلفت أنّ القرآن راعى الوحدة الموضوعية في السور جميعها بما فيها السور الطويلة فمثلاً في سورة مريم جاءت مبتدئة بالرحمة ومنتهية بها بل أنّ أجزاءها تشع رحمةً وتحنناً ، بدأت السورة بقوله : ﴿ كهيعص *ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ــ مريم/ 1،2)) واستعاذت بالرحمن حينما تمثل لها بشراً سوياً ، ولم تستعذ بالله كما فعل موسى (ع) في سورة البقرة ((أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ـــ البقرة/ 67﴾ إذ قالت : ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ــ مريم / 18﴾؛ لأن السياق في البقرة سياق عقوبة ومسخ وتنكيل على عكس سياق مريم سياق رحمة وتحنن فضلاً عن ذلك فقد تكرر لفظ (الرحمن) في مريم ست عشرة مرة ، ولفظ (الله) في البقرة مائتين واثنين وثمانين مرة، ولم يرد لفظ (الرحمن) في البقرة إلا مرةً واحدةً في قوله : ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم / 163﴾ [41].

وهكذا اكتسب النص القرآني في سورة مريم طابعاً عضوياً سمته (الرحمة) إذ رسمتها مكررة حيال كل من زكريا،وعيسى ، وإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب، وموسى، وهارون –عليهم السلام– لذا فقد انتخب النص الرحمن ليتجانس مع صفة (الرحمة) وكررها بنحوٍ لافتٍ للنظر فضلاً عن محاور أخرى مثل الإنجاب المعجز ، والظواهر الإعجازية التي واكبتها تكررت لتتناغم مع صفات الله وبخاصة صفة (القدرة) و (الرحمة) [42].

وفي سورة البقرة تلمح ظاهرة (الإماتة والإحياء)إذ يتكرر طرح هذه الظاهرة في مواقع كثيرة من هذه السورة في قصص عديدة منها:ذبح البقرة وإحياؤها،وتقطيع الطيور الأربعة وإحياؤها ،وإماتة أحدهم مائة سنة وإحياؤه،وإماتة الألوف الذين أماتهم الله ثم أحياهم،.....الخ إذ إنها جميعاً تحوم حول فكرة (الإماتة والإحياء)في الدنيا تمهيداً للاقتناع بإحياء الموتى في اليوم الآخر ، ولعل اختتام السورة بهذه الفكرة يكشف عن جملة من أسرار البناء الهندسي للسورة ، ويربط من جانب آخر بين أول السورة ووسطها وخاتمتها إذ نستكشف من هذا الربط مدى تماسك بنائها الفني ، والإحكام العضوي الذي يربط بين موضوعاتها المختلفة[43] من خلال تضافر السياق الداخلي(اللغوي) مع السياق الخارجي(غير اللغوي).

الهوامش

(1) لسان العرب ، سوق 242/2.

(2) المعجم الوسيط /مجموعة من المؤلفين ، سوق 465.

(3) المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث/د.محمد أحمد أبو الفرج 116.

(4) يُنظر مثلاً: معجم المصطلحات الأدبية/إبراهيم فتحي 210.

(5) يُنظر : اللغة والمعنى والسياق /جون لاينز 83 .

(6) يُنظر:الدلالة السياقية عند اللغويين ، رسالة ماجستير ، عواطف كنوش ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، 1992 ، ص 48.

(7) يُنظر:دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن/عبد الوهاب أبو صفية الحارثي 19.

(8) يُنظر: علم اللغة الاجتماعي / د. هدسن382.

(9) يُنظر: المعاجم اللغوية 119 ــ 120.

(10) يُنظر: التعبير القرآني/د. فاضل السامرائي 246.

(11) يُنظر: دلالة السياق 113.

(12)يُنظر: المصدر نفسه 114.

(13) يُنظر: علم اللغة / د. محمود السعران 338 ــ 339.

(14) يُنظر:علم اللغة المعاصر/د.يحيى عبابنة ود.آمنة الزعبي 37.

(15) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها /د. تمام حسان 20-21.

(16) يُنظر: المصدر نفسه 337.

(17) يُنظر:الكلمة دراسة لغوية ومعجمية /د.حلمي خليل 219.

(18) يُنظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل/د.فاضل السامرائي 82-83.

(19) يُنظر: الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي ، (بحث) ،د.كَاصد الزيدي، مجلة آداب الرافدين ، ع 26، 1994 ، ص126.

(20) يُنظر: دلالة السياق 88.

(21) يُنظر: الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى /د.حامد كاظم عباس 174.

(22) يُنظر:علم الدلالة /د.أحمد مختار عمر 68.

(23) بحثنا الموسوم بـ (السياق اللغوي في النص القرآني)،مجلة دراسات نجفية ،س2،ع4، 1426 هـ - 2005 م، ص 241.

(24) يُنظر:علم اللغة المعاصر 38 – 39.

(25) يُنظر:البحث الدلالي في تفسير مجمع البيان ، أطروحة دكتوراه، خليل خلف بشير، كلية الآداب ، جامعة البصرة، 2006 ،ص 192 ويقارن بسبب النزول في: أسباب النزول /الواحدي 318 – 323.

(26) يُنظر: الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى 173.

(27)لباب النقول في أسباب النـــزول / السيوطي 228.

(28)يُنظر:صفوة التفاسير / محمد علي الصابوني 532/3.

❁ جاء في المعجم الوسيط عقص/615) (عقصت المرأة شعرها عقصاً : أخذت كل خصلة منه فلوتها ، ثم عقدتها حتى يبقى فيها التواء ثم أرسلتها)).

(29)يُنظر: لباب النقول 21 ،وصفوة التفاسير360/3.

(30)ينظر: النص والسلطة والحقيقة-إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة/د.نصر حامد أبو زيد 103.

(31)يُنظر مثلاً: الأنفال /70،65،64، والتوبة /73، والأحزاب /28،1 ،59،50،45،...الخ

(32)يُنظر مثلاً: قوله ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل أليك من ربك ــ المائدة /67﴾.

(33)يُنظر: البرهان في علوم القرآن/ الزركشي 228/2.

(34) يُنظر: منة المنان في الدفاع عن القرآن/ السيد محمد الصدر76/1.

(35) يُنظر: المصدر نفسه 1/ 77.

(36) يُنظر:التفسير البنائي للقرآن الكريم/د.محمود البستاني 450/5.

(37) يُنظر: البرهان في علوم القرآن 231.

(38) ديوان الحطيئة 108.

(39) يُنظر: البرهان في علوم القرآن 2 /230.

(40) يُنظر: دلالة السياق 127ــ128.

(41)يُنظر: التعبير القرآني 221–222، والآيات من سورة مريم : 21، 26، 44، 45، 47، 50، 53، 58، 61، 69، 75، 78، 89، 91، 93، 96فكلها حافلة بألفاظ الرحمة.

(42) يُنظر: : التفسير البنائي (حوار)، د. محمود البستاني، مجلة قضايا إسلامية معاصرة،ع4 ، 1419 هـ – 1998 م،ص 29.

(43) يُنظر:التفسير البنائي للقرآن الكريم 1/50–51 ،والبلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي /د.محمود البستاني 72.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسباب النزول ، الواحدي، تخريج وتدقيق :عصام عبد المحسن الحميدي ، ط3 ،دار الذخائر، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع،1425 هـ –2004 م.
- البحث الدلالي في تفسير مجمع البيان ، أطروحة دكتوراه ، خليل خلف بشير ، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2006 م.
- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، تح / محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط1، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، 1957م.
- البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي ،د.محمود الإسلامي ،ط1،دار الفقه للطباعة والنشر،1424 هـ.
- التعبير القرآني ، د.فاضل السامرائي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل (د.ت).
- التفسير البنائي (حوار) ، د. محمود البستاني ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة،ع4، ،1419هـ–1998م. – التفسير البنائي للقرآن الكريم ، د.محمود البستاني ، ط1،مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية ، مجمع البحوث الإسلامية ، 1424 ق – 1382 ش.
- دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم ، عبد الوهاب أبو صفية الحارثي ، ط1، عمان ، الأردن ، 1989م.
- الدلالة السياقية عند اللغويين ، رسالة ماجستير ، عواطف كنوش، كلية الآداب، جامعة البصرة ، 1992م.
- الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي، (بحث)، د. كَاصد الزيدي ،مجلة آداب الرافدين، ع26 ،1994 م.
- الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى (دراسة لغوية) ، د.حامد كاظم عباس ، ط1 ،دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،2004م.
- ديوان الحطيئة، شرح أبي سعيد السكري ، دار صادر ، بيروت ، 1418 هـ–1998 م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط6، دار القرآن الكريم ، بيروت ، 1985 م.
- علم الدلالة، د.أحمد مختار عمر، ط1، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت، 1402 هـ – 1982م.

- علم اللغة ، د.محمود السعران ، دار المعارف ، مصر ، 1962م.
- علم اللغة الاجتماعي، د. هدسن ، ترجمة محمد عبد الغني عيّاد، مراجعة عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1987م.
- علم اللغة المعاصر– مقدمات وتطبيقات، د.يحيى عبابنة ود.آمنة الزعبي، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ،1426 هـ –2005 م.
- الكلمة دراسة لغوية ومعجمية ، د.حلمي خليل ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ،1980م.
- لباب القول في أسباب النزول ، السيوطي ،ط1، دار إحياء العلوم ، بيروت ، 1978م.
- لسان العرب ،ابن منظور،إعداد: يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب ،بيروت،(د.ت).
- اللغة العربية معناها ومبناها ، د.تمام حسان ، ط4 ، عالم الكتب، مصر ، 1425 هـ –2004م.
-اللغة والمعنى والسياق ،جون لاينز،ترجمة:عباس صادق الوهاب ،ط1،دار الشؤون الثقافية،بغداد،1987م.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د.فاضل السامرائي ،ط1 ،دار الشؤون الثقافية ، بغداد، 1999 م.
- المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث،د. محمد أحمد أبو الفرج ، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، 1966م.
- معجم المصطلحات الأدبية ، إبراهيم فتحي ،ط1،المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ، 1986م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، 1364هـ.
- المعجم الوسيط ، قام بإخراجه (إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات ،وحامد عبد القادر ،ومحمد علي النجار) ، مطبعة مصر ، 1960م.
- منة المنان في الدفاع عن القرآن،السيد محمد الصدر، دار النجوى ، بيروت ، (د.ت)
- النص والسلطة والحقيقة– إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، د.نصر حامد أبوزيد، ط4،المركز الثقافي العربي،2000م.